

ولو حدثنا أحد أبطال المرضى الذين يتمتعون ببعض الترابط الفكري والقليل من الترابط النفسى، عن لحظة دخوله وشعوره وأحاسسه في أول مرة كُتب فيها تاريخ دخوله وتنويمه، وما هو آخر شيء فعله قبل دخوله، وما هو آخر ما يتذكره خارج أسوار مثلث برمودة..

لو سئلت أحد المرضى الذين يقطنون هذا المستشفى هل تتذكر تاريخ دخولك. ؟

نعم أننى أتذكر أن لى تقريباً أكثر من 35 عاماً في هذا المكان القاتل، والذي أكثر ما فيه حياة هي جدران الطويلة وخرسانته المتينة وأتذكر جيداً بأننى دخلت على قدمي وأعلم علم اليقين بأننى لن أخرج من هنا على قدمي، بل على نقالة ومنها إلى ثلاجة الموتى ولدت لأُنسى وسوف أموت ليرتاحون مني..

توقفت الحياة، الحياة في الواقع تتوقف هُنا في هذا القسم، ولا يكاد شيئاً يتذكرونه المنومين في هذا القسم سوى الروتين القاتل، والموت البطيء، وحالات الوفيات التي تحدث منهم وفيهم، أي من زملائهم الذين عايشوهم سنوات طويلة، ولربما أصبحوا أكثر أماناً لهم من أُسْرهم وعائلاتهم، ولربما لا يتذكرون إلا هؤلاء الذين أصبحوا لهم أخوة وأهل وعزوة وسند، وأصبحوا مرتبطين فيهم ارتباط قسري، ربطتهم ظروف الحياة ولكل منهم قصته الخاصة..

الحقيقة والواقع يقول :

في هذا المثلث الجغرافي المترامي الأطراف، لا يوجد سوى جدران خرسانية، و غرف خرسانية، ونوافذ صامته لا يمكن فتحها، وعليها شباك حديد، وشباك ألمنيو ساتر، ولا يوجد تهوية وأوكسجين طبيعي يدخل في هذا القسم إلا عبر بلكونة الحديدية، تلك البقعة الخرسانية والتي تسمى حديقة وهي تخلو من المعنى والزراعة وتخلو من الأشجار، تراب عفى عليه الزمان، وسجلت عليه أروع الذكريات، وداعبته الرياح تارة، وداعبته أيدي بعض المرضى الذين رحلوا تارة أخرى، لا يوجد حتى مناظر تربطهم بأي شيء خارج هذه الأسوار التي كُتب على جدرانها إنا ههنا قاعدون..

مثلث برمودة النفس، هو أشبه بذلك المثلث الذي سمعنا عنه الكثير من القصص والخيالات ولك أن تطلق معي الخيالات وتتخيل، لأن الذين عبرو بجانبه سحبهم التيار والدوامة، وأخذتهم الجاذبية، ودخلو هذا المثلث ولا أحد يعلم عن مصيرهم، وعن حياتهم، وعن ظروفهم، هل هم أحياء، هل يأكلون، هل يشربون، هل يعلمون كم الساعه الآن.. ؟ هل يعلمون كم لون في الحياة غير الأبيض والأسود، هل يعلمون أن لهم عوائل و أسر ولربما أبناء وأخوة، وأهل، ساهمو في دخولهم دوامة مثلث برمودة، و هرعو بكل سرعه للأبتعاد عنهم، وتركهم وحيدين في منعزل الحياة، في أروقة المثلث النفس، الذي فيه وجدو أنفسهم مع واقع مرير مرير جداً للتعاش معه..

مثلث برمودة النفسي في واقعنا ، قصص وحكايا وألام وجراحات نازفة منذ أعوام طويلة، ولم تجد اليد الحانية التي تمسح عليها لتبريها، ولم تجد الأذن الصاغية التي تسمعها لتشفيتها، ولم تجد الكلمة الحنونة التي فقدها ولم يجدو سوى سهام غدر الحياة في خاصرتهم، حتى أصبحو مشردين في دهاليز مثلث برمودة النفس، يفتاتون على وجبة الغذاء في الفطور والغداء والعشاء، والتي فقط تبقئهم أحياء يتنفسون، وقلوبهم تنبض بكل ماتعنيه الكلمة (اه ، اه ، اه) لعلمي أستطيع أن أكمل سطورى وأنا في حالة صحية بلا دموع وبلا عاطفة، أحاول فقط أن أضع ماعشته بلا كثير من المجمات..

أتمشى في دهاليز هذا القسم في المناوبات الليلية ، ولا أسمع سوى صوت هدير المياه المتسرب فقط، والساعات القاتلة والبطيئة هي من تحكم المشهد، هي من تحكم أرض القسم ، لاهياة ولا صورة معلقة على جدار تذكرنى وتربطني بخارج هذه الزنزانه اللعينة، ولا تمثال يربط ذاكرتي بالمجتمع والشارع والمدرسة والجامعة، ولا لوحة تربط الماضي بالحاضر والمستقبل، كل ما أراه هي جدران مبرسلة بالبرسلان الخاص وجزأ من الجدران مصبوغ باللون الأبيض فقط، وأرضيات جلدية من الفينيل، وسقف مستعار من الديكور وفتحات تكييف مركزي يهب ببرودته بعض الأحيان، وأبواب لغرف ومستودعات طبية مغلقة بأقفالها وجدران مؤصدة بأرتفاعاتها وعرضها..

أتجول في هذا القسم لأرعى بعض المرضى في المناوبات الليلية وأحيان للوقوف على راحتهم، ولا أتذكر

شيئاً سوى أن هذا المكان خانق جداً، وقاتل جداً، ومميت ويفتقد الحياة وروح الحياة النابضة، ولا أستطيع وصف سوى أنه لا يوجد في هذا القسم سوى الصمت المطبق، وأن الثواني فيه أيام والشهور عبارة عن عقود طويلة من السنوات، ولا يوجد صوت جديد في هذا المثلث سوى صوت التلفاز وصوت المرضى مع بعضهم المرضى، والذين أعتادوا سماعه مع بعضهم حتى أن بعضهم كيف البصر فأصبح يميز صوت مريض آخر من مريض آخر، وممرض آخر من ممرض آخر..

أعلم بأن بعض المرضى لديهم مخاطر ومخاطر جداً عالية و كبيرة ، ولكن يبقى الأهل والعائلة والأسرة بالعناية والرعاية الصحية، لمن لديهم القدرة تصبح جزءاً كبير من العلاج النفسي، و تصبح جزءاً كبير ومكمل للعلاج الدوائي، ولكن فقدان هذا الدور الأسري والاجتماعي يُصبح مسبب كبير جداً لعدم تجاوب المرضى للعلاج والانتكاسات المتكررة، والتي بها تجعلهم مقيدين الحرية، ولن أخوض كثيراً في هذا الجانب..

حتى أن الصور تشابهت ، وتحددت معالمها في عيون من يدخل هذا القسم، أقصد هذا المثلث، ولن يستطيع أن يرى طوال حياته التي يكتب □ له أن يعيش سوى عدد محدود من الصور (ثوب أزرق نيلي، سرير ، غطاء، مخدة، دورة مياه، تلفزيون، حذاء جدار، نافذة، باب، ممرض) ، هل تتصور أن تقضي 35 عام من عمرك أو 40 أو 50 عام من عمرك على هذه الصور فقط، وهذه السمعيات التي تسمعها طوال العقود التي أنكتب عليك فيها أن تدور في دوامة مثلث برمودة.. اه كم هي مؤلمة هذه الكلمات، وهذه السطور وأعلم علم اليقين بأنك سيدي القارئ لن تستطيع أكمل هذا المقال، ولن تستطيع أن تقرأ أكثر مما قرأت، لأن الحدود التي وضعتها في هذا المقال هي الحدود التي شاهدها وعشتها ولذلك أصبحت حدود مقالي والدنيا فسيحة وسعي..

في كل حياتهم برمجت على الحدود في الصور، وحتى الكلمات، وحتى الأسئلة، وحتى الأفكار، وحتى الآمال ، كل شيء في أنفسهم وعقولهم أصبح له حدود، وهل يستطيع أحد منا أن يعيش حياته 40 عاماً فقط يمشي 50 خطوة في اليوم..! ولا يعرف عن التقنية والتكنولوجيا شيء، ولا يعرف عن الشارع والسيارة وأنه يوجد أشجار ويوجد طرق وكباري ويوجد مدينة، وفي تلك الليلة صارت عاصفة، وفي تلك الأوقات صارت حرباً، وأو طرف

ولو حدثت أحدهم هل تعلم أن النساء يقودون السيارات، وأصبحو يسيرون في الطرقات، وأصبحو موظفات في غالب أجهزة الدولة. ؟

من المؤكد بأنها تصبح صدمة له، ولو قلنا لأحدهم هل تعلم أنه يوجد هناك برامج ذكية تستطيع أن ترى وتسمع وتحدث أي أحد في العالم وأنت في مكانك. ؟ من المؤكد أنه لن يصدقك، بل سوف تكون بالنسبة له صدمة و صدمة كبيرة جداً لن يستطيع تحملها، السنين توقفت لديهم، والساعات توقفت، ولا يذكرون أي شيء سوى أنهم محاطين بأسوار وفي مشافي نفسية للعلاج، وليس لديهم الكثير من الوقت ليعيشونه ، وليس لديهم الحلم والطموح ليعيشون من أجله، يؤساء فقدو المسار وهم أحياء وظلت بهم الطرق لتضعهم على خارطة مثلث برمودة النفسي..

سؤال واحد فقط يتكرر في ألسنتهم ، ويداعب مشاعرهم ومخيلاتهم، وأحاسيسهم ويمنحهم حفنة أمل في مثلث البؤس واليأس (ما فيه لي زيارة. ؟) ، (ما فيه حد سئل عني. ؟) ، (ما فيه اتصال جاني. ؟) هذا فقط ما حفظوه وحفظته أنا معهم عن ظهر غيب وإجابته بشكل دائم ومكرر، وبشكل مستمر، أعلم أنها لن تسعدهم ولن تسرهم ولكنها الحقيقة.. للأسف يا أخوي حنا أهلك وحنا أخوانك، و ما فيه حد زائر لك، ما فيه حد سئل عنك، ما فيه حد أتصل فيك..!

إلا بعضهم جا حد وسئل عنه بس لغاية وحدة وهي غاية مالية (مراجعة الضمان الاجتماعي، حساب المواطن، التأهيل الشامل، وكالة شرعية لسحب مستحقاتها، أو ثرواتها، أو ممتلكاتها) وللاستيلاء على ما تبقى من هذه الجثة التي توفيت واقفة، توفيت معنوياً وأجتماعياً ونفسياً..!

أقضي 8 ساعات مناوبة مرات مناوبات صباحية، ومرات مناوبات مسائية في العصر ومرات مناوبات ليلية، وجميع المناوبات بائسة تفتقد للأبتسامة، وتفتقد للحياة، وتفتقد لعنصر الإيجابية، وتفتقد للصحة التي منها تستطيع أن ترسمها على محياهم، وتجعلهم سعداء، وتحاول تعوضهم عما فات من سنواتهم، وتحاول أن تساهم في بقائهم أحياء مكتفين بأنفسهم ولو تخلص العالم جميعه عنهم وأقربهم عوائلهم، الدولة لم تتخلى عنهم، بل أخذت على عاتقها رعايتهم والأهتمام بهم وأوكلت كل هذه المهام لنا لنرعاهم، ولكن تبقى نواقص غير الرعاية الصحية، هي الحياة الاجتماعية والأسرية والمعنوية والتي جميعها توقفت، وأنتهت، وكأنه كتاب دون في آخر صفحاته (الخاتمة) ..

والا لا أعلم الكثير عن مثلث برمودة الذي عايشوه قائي الطائرات وأختفت طائراتهم وأختفو معها ، ولا أعلم الكثير عن قصص ذلك المثلث، ولكنني عشت في مثلث برمودة النفسي، ووجدت نفسي تائه، ضائع لا أعلم كيف أبدأ مع أشخاص أنتهوا وأنتهت بهم الحياة لتضعهم على خارطة النسيان، ولا أعلم كيف أقدم لهم منحة توجد بها نفسي وتعزز في داخلهم الأمل وتشعرهم بأنني هنا أخدمهم ولكن قدراتي وطاقتي ضعيفة، وقليلة وبسيطة، وأمكانياتي وحدود مهامي تكاد تكون معدومة، ولا أعلم كيف أستطيع أن أتفوه بلساني بعض الكلمات التي لو نطقها تحييهم وتهز أرواحهم من الداخل وتبقيهم يمارعون أمواج الحياة العاتية، التي رمتهم على صخرة مثلث برمودة ..

أعذروني لم أود أن أتطرق لموضوع بهذه الحساسية وبهذه الواقعية ، ولكنني أعاني كما هؤلاء البشر يعانون، وأصبحت أرى أنهم أحياء وبالأمكان الاستفادة من طاقاتهم، ولديهم الكثير ليقدّمونه في هذه الحياة، ولديهم الكثير ليحلمون به غير (علاج للنوم، وسرير ومرتبة وغطاء وثوب نيلي أزرق، ومحيط لا يتعدى 50م)، ألا يستطيع أهاليهم وأسرهم وعوائلهم أن يبقونهم في منازلهم ولو برعاية صحية ك الظل وفرتها لهم الدولة والقيادة الرشيدة ، ك سائقين وممرضين ومساعدين صحيين، ووفرت لهم كل الأدوات وسخرت لهم الخدمات التي تجعلهم بصحة وعافية ورعاية آمنة، ألا يستطيعون أهاليهم وأقاربهم أن يتبنون وجودهم في حياتهم ومجتمعهم ليشاركوهم مرضهم وفرحهم و حزنهم، أم هي الحياة التي ضاقت برحايها في أعينهم حطت بهم على قارعة طريق مثلث برمودة النفسي ..

في هذا البقعة لا يوجد أي نشاط ترفيهي ، ولا يوجد أي نشاط رياضي، ولا يوجد أي نشاط يقوم به المريض لينظم مزاجه، وحياته، وروتينه اليومي، ولا يوجد ما يحافظ به على قوته و قدراته في هذا القسم، لئلا تمنحه نشوة الفوز على منافسة الحياة التي ظلمتها، ومنافسة الظروف التي حكمت عليه بالبقاء تحت سقف مثلث برمودة النفسي.

بعد ازدياد حالات الأمراض النفسية ، والطلب المتزايد على الاستشارات والخدمات الصحية النفسية، أصبح علينا التفكير خارج الصندوق، والبحث بشكل جدي وكبير عن حلول و تستطيع وزارة الصحة أن تبدأ بدراسة وضع هذه الأقسام، وتبدأ بدراسة فعلية ومن الواقع لبحث طرق تعزيز حياة هؤلاء المرضى في بيئة فاعلة وبيئة تمنحهم حياة وتعزز في نفوسهم أنه يوجد الأمس واليوم والغد المشرق، وتوجد شمس وأن شمس الغد قد تشرق في حياتهم و تضيئ في أعينهم صور جديدة غير الأبيض والأسود، لن أطبل الحديث ولكن الواقع يتحدث، وبعيداً عن المجاملات وعن تزييف الوقائع، الواقع كفيل بأن يشرح أكثر مما قلته وتحدثت به، في هذه السطور البسيطة..